الفتح المبين

عسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً

لم يقف المسلمون من رسول الله ﷺ موقفًا قطّ كان أشبه بموقفهم منه فى صلح الحديبية، ولم يعارضوا شيئاً من أعماله قط كما عارضوا ذلك الصلح، ولم يقف رسول الله ﷺ منهم موقفاً قط كان أغْيَظَ لهم وأشد عليهم من ذلك الموقف؛ فقد أمضى الصلح على رغمهم، وعدلَ عن مشاورتهم فى ذلك الأمر الخطير، ولم يكن له فى مثل ذلك سابقة، وقابل تشدد قريش وعنادها بمنتهى التساهل والملاينة، ورد أبا جندل إلى الفتنة والعذاب ولم يكن عهد الصلح قد كتب بعد. فشعر المسلمون فى ذلك اليوم بكل معانى الغبن والمهانة، وفارت نفوسهم بكل ما يحسونه من عزة الإيمان وقوة الاعتصام بالحق، حتى ذهب عمر بن الخطاب يجادل رسول الله ﷺ فى ثورة بادية وغيظ مكظوم، ويسأل فى دهشة عن السبب الذى دعا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى قبول هذه المهانة، فيجيبه رسول الله

فى اطمئنان الواثق وثقة المطمئن: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعنى».

وهنا محور الارتكاز فى القضية كلها؛ فقد كان رسول الله ﷺ مأموراً بأن يفعل ما يفعل، فلم يكن له أن يخالف أمر ربه وهو الذى أيده بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم، ولم يكن له أن يشاور أصحابه أو يستجيب لعواطفهم وقد صدر الأمر إليه من العلىّ الحكيم. ولقد أحسّ صلى الله عليه وسلم ذلك، منذ بركت ناقته عند مهبط الحديبية وقال أصحابه: «خلأت». فقال: «ما خلأت، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة»؛ ومنذ هذه اللحظة أعد نفسه لقبول كل خطة تدعو إلى السلم، وصلاح ذات البين، ما دام أساسها تعظيم حرمات الله تعالى، وأعلن هذه العاطفة الكريمة صريحة واضحة حين قال: «والذى نفسى بيده لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يعظمون فيها حرمات الله، وفيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها».

فلما بدا له من قريش رغبة فى الصلح لم يتردد فى قبولها، وجعل همه أن يصل إلى هذا الهدف وإن مشى له على الشوك. وكان الهدف فى نظره أسمى من أن يهتم فى سبيله بالصور والأشكال، وأغلى من أن يَضيع بسبب كلمة نابية أو مظهر جاف؛ ومن أجل ذلك أعرض عن كثير من جهالات قريش،

وتسامح مع رسولهم غاية التسامح، وتقبل بصدر رحب كل ما بدا منه من صلابة وعناد، ولم يُلق بالا قط إلى ما كان من أصحابه من حمية وغضب، ومضى فى القضية يعالجها بحكمته وسياسته، حتى انتهت إلى نهايتها التى يرجوها ويرجو بها الخير للإسلام والمسلمين؛ وكأنما كان صلى الله عليه وسلم ينظر بعين الغيب إلى ما وراء هذا الصلح من خير كثير.

ولقد آتى هذا الصلح ثمراته بأسرع ما كان ينتظر المسلمون، وباعجب مما كانوا يتصورون، وكانت ثمراته طيبة مباركة حتى سماه الله تبارك وتعالى ﴿فتحاً مبيناً﴾؛ وكأنما كان باباً يقف وراءه الخير أو سدًّا يحبس خلفه الفيضان، فلما انفتح تدفق الخير تدفقاً وانساب انسياباً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَك فتحاً مُبيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تقَدَّمَ مِنْ ذَنْبكَ وما تَأَخَّرَ ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتقيما * وينْصُرَك الله نصْراً عزيزاً.... وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانمَ كثيرة تَأْخُذُونها، فعَجَّلَ لكُم هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاس عنْكُم ولِتكُونَ آيةً لِلْمُؤمِنِينَ ويهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتقيماً * وأُخْرَى لَمْ تقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحَاط الله بها وَكَانَ الله عَلى شَيءٍ قَدِيراً﴾[1]

---

(١) سورة الفتح الآيات ١، ٣، ٢٠، ٢١.

وضعت الحرب أوزارها فانفسح الطريق أمام الدعوة

وكان من ثمرات هذا الصلح - أو من مظاهر هذا الفتح - أن وضعت الحرب أوزارها بين المسلمين وقريش، وكانت قريش هى العقبة الكأداء فى طريق الإسلام منذ ظهوره، وكانت عداوتها له أصل البلاء ومنبع الشر، وكان العرب واليهود يسيرون على منهاجها فى مناوأة الإسلام وعداوته؛ وكأنما كانت هى الجذوة التى تشعل النار فى كل ما حولها، فلما تم الصلح بينها وبين المسلمين خمدت هذه الجذوة، فخمد كل ما حولها من اللهب، وانطفأ كل ما فوقها من الشرار.

لقد أخذت قريش منذ قام النبى، صلى الله عليه وسلم، بدعوته تناصبه العداوة وتقيم فى طريقه العقبات، وتصفه بالسحر تارة، وبالكهانة تارة، وبالجنون تارة، وبالكذب تارة، وتحذر العرب فى المواسم والأسواق من شره وسحره ليقاطعوه، وتحصره وآله فى الشِّعب حتى كادوا يهلكون جوعاً، وتصب على أصحابه ألوان العذاب حتى تخرجهم من ديارهم وأموالهم، وتتآمر على قتله حتى يفر منها مهاجراً إلى المدينة، ثم تتعقبه هناك فى مهاجره فتغزوه المرة بعد المرة، وتتآمر مع اليهود عليه فيحاولون اغتياله، ويجمعون له الأحزاب ويؤلبون عليه القبائل. . وهكذا وهكذا

مما جعل حياته وحياة أصحابه جهاداً دائباً وكفاحاً مريراً..

ثم ها هى ذى قريش بعد كبريائها وعنادها، وبعد جحودها العاق وعدائها المر، ترغب الآن فى مهادنته وسلمه، وتعترف به بعد أن أنكرته، وتقفه منها موقف النظير من النظير، وترسل إليه رسولها ليفاوضه فى أمر الصلح؛ فأى فرصة أحسن من هذه يمكن أن ينتهزها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليفسح الطريق أمام دعوة الإسلام التى ظل حياته يجاهد فى سبيلها، والتى رصدت لها قريش كل مَرْصد ووقفت لها بكل سبيل؟ لقد كانت فرصة ينبغى ألا تضيع، وألا يحول دونها شىء من المظاهر التى لا قيمة لها ولا غناء فيها. ولقد انتهزها رسول الله ﷺ فأمضى الصلح بينه وبين قريش، ولم يعبأ بما هنالك من غضب الأصحاب وجهالة الأعداء؛ فضرب بذلك أروع الأمثال فى الحكمة والسياسة، وقوة البصر بالأمور ودقة النظر فى العواقب.

أصبح المسلمون قادرين على أن يتصلوا بالناس فى ديارهم ليشرحوا لهم مبادئ الدعوة

وكان من ثمرات هذا الصلح - أو من مظاهر هذا الفتح - أن انفسح أمام المسلمين مجال العمل، ومُهِّد للدعوة طريقها لكى تصل إلى القلوب؛ فبعد أن كان المسلمون محصورين فى

المدينة، منقطعين عن العرب فى البادية والحاضرة، صار من الممكن لهم أن يتصلوا بالقبائل فى منازلهم، وأن يختلطوا بالناس فى ديارهم، فيشرحوا لهم مبادئ دينهم وحقيقة دعوتهم، ويطلعوهم على ما فى هذه الدعوة من مبادئ سامية وأخلاق عالية، ومُثُل كريمة وأهداف عظيمة؛ فأخذ الناسُ - بما يرون من أعمال المسلمين وأحوالهم، وبما يسمعون ويشهدون من سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بينهم، وعظيم أخلاقه فيهم - يُقبلون على الإسلام ويسارعون إلى اعتناقه؛ ففشا الإسلام فى كثير من القبائل، وآمن به كثير من الناس، وأخذ محيطه يتسع حتى شمل مكة نفسها، وجعل عدد المسلمين يزداد حتى صار أضعافاً مضاعفة؛ ولم يمض عامان بعد الحديبية حتى دخل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مكة فى عشرة آلاف، وكان جيشه يوم الحديبية لا يزيد على ألف وستمائة.

وكما أخذ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يعمل على نشر الإسلام فى بلاد العرب، أخذ يعمل على نشره فى الممالك والأقطار التى تحيط بها؛ فكتب إلى ملوكها وأمرائها يدعوهم إلى الإسلام، واختار من أصحابه رجالا يعرفهم بحسن الأداء وقوة البلاغ، فبعث بكل كتاب رجلا إلى ملك من الملوك. ومع أن أكثر هؤلاء الملوك والأمراء لم يؤمنوا، ولم يحسن بعضهم تلقى

كتاب النبى ولم يكرم وفادة رسوله، فإن صوت الإسلام دوّى فى هذه الأقطار، وظل صداه يرن فى أرجائها حتى فتحها الله على المسلمين، ودان أهلها بالإسلام بعد زمن قليل لا يزيد على ثلاثين عاماً.

انعزل اليهود بهذا الصلح عن العرب فوجه النبى إليهم كل قوته فقضى عليهم

وكان من ثمرات هذا الصلح - أو من مظاهر هذا الفتح - أن ألقى النبى، صلى الله عليه وسلم، عن كاهله عبء التفكير فى قريش، وأخذ يوجه كل قوته إلى اليهود، وكانوا هم العدو الأكبر بعد قريش؛ وكانوا لا يزالون يحاولون بوسائلهم الماكرة، ويعملون بأساليبهم الخبيثة، ليزعزعوا قوة الإسلام ويقوضوا أركانه، حتى لا تقوم له دولة، أو يكون لأهله صولة؛ وكان اعتمادهم فيما يريدون من ذلك على قريش أولاً، وعلى من حولهم من قبائل العرب ثانياً. فلما وقع الصلح بين المسلمين وقريش، وكان من نتائجه ما كان من هذه الهدنة، ومن جنوح القبائل بعدها إلى السلم، صار اليهود فى شبه عزلة عن العرب، وضاقت عليهم الدائرة فانحصروا فى محيط ضيق، وتهيأت بذلك الفرصة للمسلمين للقضاء على هذا العدو الغادر، الذى

لا يؤمن شره، ولا يُرتجى خيره، وكان ما كان بعد ذلك من وقائع خيْبَر وفدَكَ وتَيماء، مما أعز الله به الإسلام وأذل أعداءه.

اعترفت قريش بحق المؤمنين فى زيارة البيت وأمن المستضعفون بمكة على أنفسهم

وكان من ثمرات هذا الصلح أن اعترفت قريش بحق المسلمين فى زيارة البيت، وأن تم ذلك دون قتال، وكان ذلك فوزاً عظيماً للمسلمين فى المدينة، وخيراً وبركة على المستضعفين فى مكة؛ فقد كان فى مكة رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لا يعرفهم رسول الله ﷺ ولا أصحابه، وكانوا من المستضعفين الذين لا يستطيعون الجهر بإيمانهم، ولا يجدون السبيل إلى الفرار بدينهم؛ فلو كان القتال نشب بين الفريقين لذهب ضحيته عدد من هؤلاء المستضعفين، ولقتل المؤمنون إخوتهم وهم لا يعلمون بأمرهم، فيكون فى ذلك ما يكون من الخسارة عليهم، ومن المعرَّة لهم، ومن التحرج والندم على ما كان منهم. وفى ذلك يقول الله تبارك وتعالى مُمتنًّا على رسوله وعلى المؤمنين: ﴿وهو الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وأَيْدِيَكُمْ عنْهُمْ ببَطْن مَكَّةَ مِنْ بَعْد أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ اللَّهُ بمَا تعْمَلُون بَصِيراً * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَن الْمَسجِدِ الْحرَامِ والْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَنْ يبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رجالٌ مُؤمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تطئُوهُمْ

فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً * لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً *»[1].

قريش تستغيث برسول الله

وكان الشرط الذى تألم له المسلمون غاية التألم، وتمسك به المشركون غاية التمسك.. فرجاً ومخرجاً للمستضعفين، ونكداً وخسارة على المشركين، حتى صاروا هم الذين يسعون إلى إلغائه، ويعلنون نزولهم عنه ولم يكن قد مضى عليه عام بعد.. ذلك أن أبا بصير- عتبة بن أُسَيْد الثقفى- فر إلى المدينة هارباً بدينه من قريش، فأرسلت قريش فى أثره رجلين إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تطالبه برده إليها وفاءً بشرط الصلح بينها وبينه، فقال رسول الله، ﷺ: «يا أبا بصير، إنا قد

(١) سورة الفتح الآيات ٢٤-٢٧.

أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر؛ فانطلق إلى قومك». فقال أبو بصير: «يا رسول الله، أتردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى»؟ قال: «انطلق، فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً». فانطلق أبو بصير مع الرسولين، حتى إذا كان ببعض الطريق احتال حتى أخذ من أحد الرجلين سيفه، ثم جعل يضربه به حتى قتله. فلما رأى صاحبه ذلك فر بنفسه هارباً، حتى دخل على رسول الله المسجد مرتاعاً يقول: «قتل صاحبكم صاحبى»!.. وجاء أبو بصير فى أثره، فسلم على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «وفَتْ ذمَّتُك يا رسول الله وأدَّى الله عنك؛ أسلمتنى إلى القوم وقد امتنعت بدينى أن أفْتَن فيه». فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «اذهب حيث شئت». فلما ولّى أبو بصير قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «وَيْلُ امِّه مِسْعَرَ حَرْب لو كان معه رجال»!

وانطلق أبو بصير حتى نزل مكاناً على ساحل البحر، بين العِيص وذى المروة من أرض جُهَينة، وهناك قعد بطريق قريش، كلما مرت به تجارة لها أغار عليها. وسمع بأمر أبى نصير ناس من المستضعفين بمكة، وبلغهم ما قاله رسول، صلى الله عليه وسلم، فى أبى بصير، فجعلوا يتسللون إليه ويتجمعون حوله،

وانفلت إليهم أبو جندل بن سهيل فى سبعين راكباً أسلموا، وانضم إليهم ناس من بنى غفار وأسلم وجهينة، وطوائف من الناس ومن الأعراب، حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل، فأقاموا هنالك يقطعون الطريق على تجارة قريش، لا تمر بهم عير إلا أخذوها وقتلوا أصحابها. وفى ذلك يقول أبو جندل:

أبلغ قريشا عن أبى جندل ... أنّا بذى المروّة بالساحل
فى معشر تخفُق راياتهم ... بالبيض فيها والقنا الذُّبَّل[1]
يأبَوْن أن تبقى لهم رُفقةٌ ... من بعد إسلامهم الواصل
أو يجعلَ الله لهم مخرجاً ... والحق لا يُغلَب بالباطل
فيسلم المرء بإسلامه ... أو يقتلَ المرء ولم يأتَل[2]

وضاقت قريش بهم ذرعاً، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ تناشده بأرحامها إلا آواهم إليه، وقالوا: «لا حاجة لنا بهم، ومن خرج منا إليك فأمسكه من غير حرج عليك». فكتب صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى أبى بصير وأبى جندل، يأمرهما بأن يقدمَا عليه، ويأمر من معهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم، ولا يعترضوا لأحد مر بهم من قريش.

---

(١) البيض: السيوف. والقنا الذبل: الرماح المسنونة المصقولة.

(٢) لم يأتل: لم يدخر وسعاً فى الدفاع عن عقيدته.

حكمة الرسول وحسن نظره فى الأمور

وهكذا جعلت الأيام كلما مرت، تبين بُعد نظر الرسول، صلى الله عليه وسلم، وحسن سياسته وصواب رأيه، وتقنع أصحابه بأنهم كانوا متعجلين حين كرهوا ذلك الصلح الذى كان يُمناً وبركة على الإسلام والمسلمين، وتظهر للذين بَرِموا به واستثقلوا شروطه «أن النبى كان أصح منهم رأياً وأبعد مدًى، وأشد يقيناً بأن الله لن يضيعه ولن يخذله، وأن ما رآه هو الخير الكثير والفوز العظيم»[1].

«وكان أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، يقول: «ما كان فتح أعظمَ فى الإسلام من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصَّر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يَعْجَلون، والله لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.. لقد نظرت إلى سهيل بن عمرو فى حجة الوداع قائماً عند النحر، يقرِّب إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بُدْنه، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، ينحرها بيده، ودعا الحلاق فحلق رأسه؛ فأنظرُ إلى سهيل يلقُط من شعره، وأراه يضعه على عينيه؛ وأذكر إباءه أن

(١) لواء الإسلام - للأستاذ الشيخ محمد الب.

يُقرّ يوم الحديبية بأن يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»، وإباءه أن يكتب أن «محمداً رسول الله»؛ فحمدت الله الذى هداه للإسلام.. فصلوات الله وسلامه على نبى الرحمة، الذى هدانا به وأنقذنا به من الهلكة»[1].

«وكذلك صدَّقت الحادثات حكمة النبى وبعد نظره ودقة سياسته، وأثبتت أنه إذ عقد عهد الحديبية وضع حجراً لا يُنقض فى سياسة الإسلام وانتشاره، وهذا هو الفتح المبين»[2].

---

(١) إمتاع الأسماع.

(٢) حياة محمد.